استشراف المستقبل في ضوء الحديث النبوي الشريف

محمد بشار محمد أمين الفيضي*

ملخص

يلفت البحث أنظار الباحثين إلى كنز ثمين مودع في ثنايا الأحاديث النبوية. وهو الجانب المتخصص منها بأخبار المستقبل، ولكن أهمية هذا الجانب في كونه يرسم للأمة الإسلامية مستقبلها بكل ما فيه من محاسن ومساوئ، ومعرفة ذلك بلا شك يعين أفراد هذه الأمة على التعامل بدقة مع مجريات الأحداث التي تواجهها.

إن أخبار المستقبل في السنة النبوية تختلف عن استشراف المستقبل بالجهود البشرية الصرفة، لأن الأخير يمثل جملة من الافتراضات والتخرصات القابلة للخطأ، في حين أخبار المستقبل في السنة النبوية وحي سماوي لا محل للخطأ في تقديراته ...

ولقد تضمنت أخبار المستقبل في الحديث الشريف معلومات ثمينة وردت عبر المحاور الآتية:

- أخبار المستقبل في شأن ارتفاع الأمة الإسلامية وكثرة الخير فيها.
- أخبار المستقبل في شأن الفتوحات التي تكون على أيديها.
- أخبار المستقبل في شأن اختلال المقاييس الدينية والخلقية والاجتماعية.
- أخبار المستقبل في اختلال بعض من نواميس الكون والحياة.
- أخبار المستقبل في شأن العلامات الصغرى والكبرى للساعة.

وقد استعرض البحث نماذج لهذه الأخبار واستشرف منها مفاهيم في غاية الأهمية تصلح أن تكون بداية الطريق.

* **قسم الحديث وعلومه، الجامعة الإسلامية، بغداد.**

تاريخ استلام البحث: 2003/3/19 تاريخ قبول البحث: 2003/11/18

Abstract

Our research pays the attention of the researchers to the wealthy treasrure within our prophet's hadiths. This is the part concerning future news, but the importance of this side stands in drawing the future of Islamic Nation according to its goodness and badness sides, and undoubtly knowing this information led individuals of this nation to deal accurately with steps of the events that we face.

In prophet hadiths the future news about wealthy information are in accordance with the following cores:

1- Future news in raising the level of Islamic nation and increasing the wellbeing.
2- Future news pertinent to the degradation of the nation.
3- Future news concerning the concquest of other countries.
4- Future news pertinent to instability in religion, ethics, and social affairs.
5- Future news concering instability in nature of universe and life.
6- Future news pertinent to small and big signs of the day of judgment.

Also this research reviews samples of these news of which some are very important and suitable to be as the beginning of the way.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين. وبعد:

فثمة كنز من السنة النبوية مودع بين أظهر المسلمين لما يزل مقفلاً، ينتظر من يفتح غطاءه ويكتشف ما فيه من نفائس، ذلكمُ هو ما حدثنا به رسول اللهﷺ من أخبار مستقبلية ضمت أحداثاً جساماً ستطال أمة الإسلام، وأنباء أخرى، فيها ما هو سارّ مبهج، وفيها ما هو ضار محزن.

ونجد أن علماءنا-قديما وحديثاً-بحثوا في مسائل العقيدة، فأشبعوها بحثاً، وصنفوا في مسائل الفقه-عبادات ومعاملات-فملؤا الدنيا تصانيف بهذا المستقبل، وكان لديهم في ميدان علم الأخلاق جولات وجولات، لكنه أخبار المستقبل، لم يولوها الاهتمام الذي تستحقه، بل كانوا يكتفون بنقل الأخبار منبهين على ما وقع منها إن وجد، ومحذرين مما لم يقع بعد.

والذي نراه أن أخبار المستقبل لها مدى أبعد من ذلك، فالنبيﷺ حين أولى هذا الجانب اهتماماً كبيراً ومنحه كثيراً من وقته وجهده، لم يكن الغرض من ذلك - في تقديري - تحذير من سيعايش تلك الأحداث فحسب، إنما أراد أن أمته سبل التعامل مع هذه الأحداث ونظائرها، وهذا أمر يشمل كل الأجيال لأن النظائر موجودة في كل زمان ومكان.

ومن هنا تكون أخبار المستقبل، مدرسة نبوية، عظيمة النفع، غزيرة الفائدة، يفتقر المسلمون إلى الانخراط فيها، والاطلاع على مناهجها، ليتمكنوا من مجاوزة عقبات المستقبل بسلام، والإفادة من فرصه وعطائه.

ومما يؤسف له أن العالم كله بدأ يهتم بالمستقبل في وقت مبكر، وكان يتشبث بأيّ نبوءة تعينه على كشف خيوطه، في حين ضرب المسلمون عن ذلك صفحاً، ولديهم أعظم دليل وأصدقه بهذا الصدد، ممثلاً بأخبار المستقبل في السنة النبوية.

إن هذا البحث يلفت النظر إلى أهمية هذا اللون من أخبار السنة النبوية، ويبدأ الطريق أمام الباحثين، فما زال في الوقت متسع، وما زالت الخطوات في بداية المنطلق.

المدخل:

أهمية دراسة المستقبل:

في وقت مبكر من القرن المنصرم، توجه الغربيون إلى دراسة المستقبل في شتى مجالات الحياة، وجنوا من وراءه ذلك منافع لا تعُد، وثماراً لا تحصى.

والحق أن هذا الجانب من العلوم، لم يعد هيناً، كما عهدناه في السابق، حتى يغتفر التساهل فيه، والإبطاء عنه، بل أصبح فرصاً-كما يقال-ذهبية، من امتلك نواصيها، وفق للحصول على كثير من المكاسب والمصالح.

ولن نكون مبالغين إذا شبهناه بالسلاح النووي وما شاكله من أسلحة الدمار الشامل، الذي يمنح مالكيه في إدارة العالم وسياسة أحداثه، امتيازات لا يملكها سواهم.

والسر في ذلك أن الحياة من قبل، كانت سهلة، والعوامل التي كانت تساهم في صنع الحدث-مهما عظم- قليلة، ومعروفة غالباً، والأهداف المتوخاة خالية من الغموض، غير خافية، ومن ثم فإن بمقدور الأطراف المعنية، التعامل معها، وتجنب مفاجآتها، لأن فرص الاحتمالية ضيقة، بسبب بساطة الحياة، وفي الحروب القديمة ومجريات أحداثها، مثل بين، يؤكد هذه السهولة التي كانت الحياة تتسم بها.

أما في الوقت الراهن، فالحال مختلفة تماماً، فقد غدت الحياة أكثر صعوبة وأكثر تعقيداً، وصار الحدث فيها وليد جهات عديدة متداخلة ومؤثرة في صنعه، بعضها ظاهر، وبعضها خفي، فضلاً عما يشهده العالم من تقلبات سريعة، وتطورات مذهلة، فيها دائماً المفاجئ، وما ليس في الحسبان.

فهذا وغيره، جعل مجالات الاحتمالية واسعة، وتنحو دائماً إلى مزيد، وصار من الصعوبة بمكان، التعامل مع الحياة، واتخاذ القرارات المناسبة في مستجداتها، ومن ثمّ فإن الأطراف التي تفتقر إلى خبرة بالمستقبل، لن تتمكن من العيش بسلام مع أطراف أخرى خبرت المستقبل، وأعدت له عدته، واستعدت لكل مفاجآته[1].

ومن هنا فإن دراسة المستقبل، لم تعد فضلة، يحتمل إهمالها، بل أصبحت ضرورة من الضروريات التي لا يمكن لأي مجتمع أو دولة أو أمة، أن تعيش من دونها عيشاً آمناً رغداً.

إن دراسة المستقبل تعمل-أولاً-على تحديد المسارات التي ينبغي على الأمة سلوكها، وعدم الخروج عليها إلا لطارئ غير محسوب، وترسم نظريات لمستقبل مرغوب فيه، يحقق الأهداف والطموحات المتوخاة، وتقترح-في الوقت نفسه-خططاً مستقبلية ... غرضها تحويل هذا الشكل المرسوم إلى مستقبل ممكن.

وهي-ثانياً-تقف على الاختيارات الصائبة في مجريات الأحداث، وإدارة دفة الحياة، بغية مساعدة صانعي القرار على التقدم نحو الأهداف، طويلة المدى، التي تم رسمها.

كما أنها تقف على التدابير الواجب اتخاذها، كل في أوانه، بقصد الوصول إلى هذا الهدف أو ذاك.

دراسة المستقبل ومصطلح الاستشراف:

سبق منا القول: إن الاهتمام بهذا العلم، ظهر في وقت مبكر عند الغربيين، ولسنا نعني أن المسلمين الأوائل عدموا الاهتمام بهذا الجانب، أو غفلوا عنه، بل المتفحص يجد أن لنا فيه باعاً، وهذا البحث مسوق لتأكيد ذلك.

لكن الواقع الذي يجب أن نقر به: إننا درجنا على إهمال ما لدينا من خير، وعدم التنبه له إلا بعد اهتمام غيرنا به، وسعيه في تنميته وتطويره.

ومن هنا فإننا حين نريد أن نحدد مفهوم هذا العالم، سنجد أننا مضطرين للبحث عنه عند أول من أظهر هذا الاهتمام به، وكتب فيه البحوث والمقالات، وهم الغربيون.

والغربيون، لهم في الدلالة على هذا العلم عدة مصطلحات، وقد جاء هذا التعدد تبعاً لتنوع الألفاظ الأجنبية الدالة على هذا العلم عند أهله.

فالناطقون بالإنكليزية يستعملون المصطلح الآتي (Futurology) وترجم بالمستقبلية أو علم المستقبل.

أما الناطقون بالفرنسية فلديهم مصطلح شائع ابتدعه رائد علم المستقبل عندهم: غاستون برجر، وهو مصطلح (Prospective) وهو مشتق من فعل (Prospecter) أي نقب وفحص بتدقيق وانتظام.

أما الأمريكيون فلديهم مصطلح يناسب نزعتهم إلى الحروب، وهو مصطلح (Petahism) وقد استعمله العالم الأمريكي الفلكي توفلر في كتابه الشهير (صدمة المستقبل) وهو يدل على اتجاه مفرط في المعاداة لكل ما هو تقليدي مألوف، يؤمن بالمادة، ويرى فيها طاقة الحياة [(2)].

وتبعاً لهذا الاختلاف تعددت المصطلحات حديثاً عند الباحثين العرب في هذا الحقل للدلالة على فن دراسة المستقبل، شأنه في ذلك شأن العديد من الفنون والعلوم الوافدة من الغرب أو المنقولة عنه.

فلدى النظر في الأبحاث والدراسات التي تناولت بالدراسة والتحليل آفاق المستقبل في العالمين العربي والإسلامي، نجد مصطلحات عديدة نعت بها هذا العلم، مثل: (استشراف المستقبل و (المستقبلية) و (علوم المستقبل) و (التنبؤ بالمستقبل) و (صور المستقبل البديلة) و (التخطيط المستقبلي) و (عالم الغد) وهكذا.

بيد أن المصطلحات بين هذه المصطلحات الثلاثة، يبدو لنا أن الأول منها، وهو (استشراف المستقبل) أكثرها ذيوعاً، وهيمنة على الدراسات المكتوبة بهذا الصدد [(3)].

ولذلك وقع اختيارنا عليه، ليكون عنواناً للبحث، فضلاً عن كونه الأقرب في لغة العرب إلى المقصود من هذا العلم في بحثنا والله أعلم.

استشراف المستقبل لغة واصطلاحاً:

جاء الشرف في اللغة: بمعنى العلو، والمكان العالي، يقال: جبل مشرف أي عال وأشرف المكان أعلاه، وأشرف عليه: اطلع عليه من فوق[(4)].

وتشرف الشيء واستشرفه وضع يده على صاحبه كالذي يستظل من الشمس حتى يبصره ويستبينه.

جاء في الشعر قول ابن مطير:

فيا عجباً للناس يستشرفونني　　　كأن لم يروا بعدي حياً ولا قبلي

وورد في حديث أبي طلحة ﷺ في موقعة أحد: "فكان إذا رمى استشرفه النبي ﷺ ينظر مواقع نبله" [(5)].

ومما مرَّ يظهر أن الاستشراف في لغة العرب: تحديق الناظر في المنظور على نحو يجعله أقوى على إدراكه واستبيانه كأن يبسط كفه فوق حاجبيه كالمستظل من الشمس، بغية الرؤية بوضوح بعيداً عن تأثير شعاعها، أو ينظر إليه من شرف أو مكان مرتفع، أو يمد عنقه ويسدد بصره نحوه ليتثبت منه[6]، وهكذا ....

أما المستقبل ... فالاستقبال ضد الإدبار، وأقبل ضد أدبر[7]. واصطلح في معناه على ما ينتظر من الحوادث والوقائع في قابل الأيام أو الشهور أو السنين.

أما في الاصطلاح: فثمة أكثر من تعريف، لا أجد جدوى من ذكرها جميعاً، لأنها متعلقة بعلم بشري للمستقبل لا صلة له بالسماء، وبحثنا في غير هذا الصدد، لذا سأكتفي بتعريف واحد، وضعه عدد من الباحثين، نراه جامعاً لأهم عناصر هذا العلم.

وهو ينص على أن استشراف المستقبل هو: (اجتهاد علمي منظم يرمي صوغ مجموعة من النبوءات المشروطة والتي تشمل المعالم الرئيسة لأوضاع مجتمع أو مجموعة من المجتمعات وعبر فترة تمتد قليلاً لأبعد من عشرين سنة وتنطلق من بعض الافتراضات الخاصة حول الماضي والحاضر واستكشاف أثر دخول عناصر مستقبلية، ولا يستبعد إمكانية استكشاف نوعية التغيرات الأساسية وحجمها الواجب حدوثها في مجتمع ما حتى يستشكل مستقبله على نحو معين) [8].

معالم في التعريف، وعلاقة الحديث النبوي بها:

لو أنعمنا النظر في التعريف السابق لاستشراف المستقبل عند الباحثين، لأمكننا الوقوف على معالم مهمة فيه، لابد-أولاً-من تشخيصها، لنتوصل من ثم إلى ما بين هذا الفن، واستشراف المستقبل في الحديث النبوي الشريف من علاقة، وتتضح لدينا-في الوقت ذاته -مواطن الاتفاق بينهما ومواطن الافتراق.

هذه المعالم يمكن إجمالها فيما يأتي:

أولاً: أنه اجتهاد علمي.

وهذا يعني أنه ليس من قبيل النبوءات التي يمارسها العرافون وغيرهم، والقائمة على أساس أن المستقبل محسوم، المطلوب هو الكشف عنه، وتجلية أحداثه ليس أولاً.

وهو-أيضاً-ليس اجتهاداً معصوماً، يمتنع عليه الخطأ في توقعاته ونجاحه، بل إن احتمال الخطأ فيه وارد جداً، والوحيد المؤكد في الدراسات المستقبلية-كما يقول بعض الباحثين بهذا الصدد-هو حومان الريب حول توقعاتها جميعاً[9].

ثانياً: أنه يستوعب في اجتهاده الماضي والحاضر، وصولاً إلى استكشاف المستقبل، فنتائجه مستفادة منهما ومبتناة عليهما، لأن التفكير بالمستقبل قراءة للواقع من خلال المستقبل، وليس اهتماماً من أجل الاكتفاء

بالتخمين فيه، والتنبؤ بأحداثه، إذ لا فائدة ترجى منه إذا لم ينعكس على الواقع فيغيره نحو الطموح لأن الواقع ما هو إلا محصلة تطور تأريخي طويل تفهم تجلياته وحيثياته من حقب التأريخ السابقة له.

ثالثاً: إن له مدى معلوماً يربو على عشرين عاماً، ومدة بعض الباحثين إلى ثلاثين عاماً كحد أقصى[10].

وفي تقديرنا أن حصر ذلك بهذه المدة، منبعث من عادة الإنسان في الاهتمام بالمستقبل القريب الذي يعينه على جبلته في الأثرة والأنانية دون التفكير بمصالح من بعده وقد يكون له مسوغ آخر، وهو أن المدة فوق ذلك تجعل من العسير رسم أحداث لها، أو وضع افتراضات صادقة، فأهملت لئلا يكون الجهد فيها ضائعاً.

ومع تشخيص هذه المعالم يبدو لنا أن الاستشراف المستقبلي في الحديث النبوي يتفق مع هذا العلم في وجه ويختلف معه في وجوه.

أما وجه الاتفاق فهو النظر إلى المستقبل بدقة لغرض استبصاره وتبيينه، أما وجوه الاختلاف فعديدة. يعنينا منها في هذا البحث ما يأتي:

أولاً: أن الأخبار بالمستقبل في الحديث النبوي الشريف، ليس افتراضاً قابلاً للصواب والخطأ، وخاضعاً لقدرة المجتهد في سعة الإحاطة بالمستقبل، بل وحي سماوي لا مجال للخطأ في تقريراته، ولا ينافسه في الإحاطة بالمستقبل أحد، فالنبيﷺ أُوحي إليه بالمستقبل، كشفاً للغيب، فكان يبينه لأمته وكان يراه، ولذا يحدثهم له على سبيل الجزم واليقين والاستيعاب والشمول....

ولنتأمل هذه النصوص:

1- عن حذيفةﷺ قال: "قام فينا رسول اللهﷺ مقاماً ما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة، إلا حدث به حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء وأنه ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه" [11].

2- وعنه أيضاًﷺ قال: "والله ما أدري أنسي أصحابي أو تناسوا والله ما ترك رسول اللهﷺ من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعداً إلا قد سماه لنا باسمه واسم أبيه واسم قبيلته" [12].

3- وعن عمر بن الخطابﷺ قال: "صلى بنا رسول اللهﷺ الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر فنزل فصلى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر فنزل فصلى ثم صعد فخطبنا حتى غربت الشمس فأخبرنا بما كان وبما هو كائن فأعلمنا احفظنا"[13].

ثانياً: لا علاقة لاستشراف المستقبل في الحديث النبوي الشريف بالماضي والحاضر، فهو لا يعتمدها للوصول إلى رسم صورة للمستقبل، بل علاقته بسنن الله الكونية التي تنتظم الماضي والحاضر والمستقبل، وهي سنن ثابتة وصفها المولى سبحانه وتعالى بكونها سننا لا تتبدل ولا تتحول....

ولذا، قد يتضمن الحديث الشريف إشارات إلى الماضي، أو تنويهاً بالحاضر، لكن على سبيل التعريف بهذه السنن أو التذكير بها، بغية الاتعاظ وأخذ العبرة ليس إلا.

ثالثاً: ليس للبيان ولأخبار المستقبل في الحديث النبوي الشريف مدى محدود يذكر بالسنين، بل مداه واسع يمتد إلى وقت انتفاء الفائدة من هذا (العلم) وهو ساعة خراب الدنيا، فما دام على وجه البسيطة مؤمن، فإن العلم قائم، وبمقدور المؤمن الانتفاع منه وله جانب آخر في المدى، يتجاوز فيه الحياة الدنيا إلى العلم الآخر، وليس هنا محل بسطه.

من خلال ما تقدم، يتضح لنا، أن الفرق شاسع بين هذا العلم عند المتخصصين في حقله وبين حقيقته في حديث النبي ﷺ.

فإن المستقبل في الحديث النبوي، صادق في تقريراته، مؤكد وقوعه، والوقوف عليه ميسور، فضلاً عن أن مداه مفتوح، حتى قيام الساعة، في حين لا يمتلك الاستشراف المستقبلي عند المتخصصين به أياً من هذه المزايا.

استشراف المستقبل في الحديث النبوي والغاية منه:

لقد تحدث النبي ﷺ لأمته بشأن المستقبل كثيراً. وبين لها ما تنطوي عليها أعوامه وأيامه من خير أو شر.

فمن جانب حدث النبي ﷺ أمته بما ينتظرها من غدٍ مشرق ومستقبل زاهٍ، وتفوق في مختلف مجالات الحياة، السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية، وغيرها.

ومن جانب آخر كشف لها ما ستتعرض له من مصائب وحروب وفتن، وإخفاق في شتى مجالات الحياة أيضاً، سينال منها ويغتال طيب معيشتها.

كان هذا البيان شاملاً لأمور تقع في حياته عليه الصلاة والسلام، وأخرى في عهد الصحابة، وثالثة في حياة من بعدهم إلى قيام الساعة.

وجزماً لم يكن النبي ﷺ يقصد من وراء هذه الأخبار إمتاع الأسماع، ولا إلقاء الرعب في قلوب أمته، على نحو يدفع بهم إلى اليأس، إنما أراد أن يرسم لأمته المستقبل، ويكشف لهم بعض خيوط الغيب-الذي علمه الله إياه-بما يهيئهم نفسياً لاستقبال المستجدات خيراً كانت أو شراً، ويمكنهم بالتالي من تجاوز العقبات، وتحقيق مواقع أفضل على هذه البسيطة.

وبعبارة أخرى، هذا البيان من شأنه، أن يغرس في نفس الأمة الاستعداد لاستقبال ما هو جديد من الأحداث والمواقف، بحيث يكونون أقدر على احتوائه والتعامل معه بكياسة وفطنه، - لأنه في الحقيقة-يمنحهم الفرصة الكافية للتخطيط، ويجنبهم في الوقت نفسه هول المفاجأة، فلا تخطف عقولهم الأحداث، مهما كانت جسيمة، ولا يلحقهم من الأذى وخلل التوازن، ما يلحق عادة من يقع فريسة المباغتة.

وإذا جاز لنا أن نضرب مثلاً لتوضيح الأمر دون القياس، فإن الموقف هنا أشبه ما يكون برجل، يريد ولده أن يسافر إلى بلد بعيد، قد سافر هو إليها قبله، ويعلم جيداً ما في الطريق إليها من مخاطر وعثرات، ومحطات فيها مغانم وخيرات، فيدفعه حبه لولده وحرصه عليه أن يجلس معه قبل السفر ساعات طويلة، يحدثه فيها عن سفره المقبل، وما فيه من عقبات يجب الحذر منها، ومغانم يمكن الانتفاع بها، وغرضه من ذلك أن يكون ولده على علم مسبق، بما سيعترضه فيتجنب عنصر المفاجأة، فيتمكن من قطع الطريق دون عقبات والعودة من ثم سالماً غانماً.

وإذا كان النبيﷺ – مثل غيره من الأنبياء والبشر-أجله محدود، فهو لم يسلك هذه السبيل على وجه التجربة والمشاهدة، لكنه بوحي من الله-عز وجل-عرفها، وخبر مسالكها، وشخص معالم الخير والشر فيها، فدفعه حبه لأمته وحرصه عليها، إلى أن يبين لها من المستقبل كل شيء يرى في بيانه معيناً لها على المغنم والنجاة.

ولا يخفى ما لهذا البيان من أثر كبير في إعانة المقدم على طريق يجهل ما فيها.

على أن النبيﷺ لم يكن يكتفي بوصف الأحداث وصفاً مجرداً على الرغم مما في ذلك من فوائد كبيرة، بل كان في كثير من الأحيان، يقرن بيانه للحدث المستقبلي بما ينبغي أن تتخذه أمته إزاء ذلك من خطوات، ويترك ما لا يخفى لأمته مستعينة بما لديها من كتاب الله وهديه الشريف.

وهذا لعمري، خير عظيم، وفضل من الله ورسوله كبير، لم تحظ بمثله أمة أخرى.

إن ثمة أحداثاً يأمر النبيﷺ بمواكبتها، وتأييدها بالقول والفعل، وأحداثاً أخرى بأمر باعتزالها، وتجنب الخوض فيها، وأحداثاً ثالثة يأمر أن يكون فيها أحدنا عبدالله المقتول وليس عبدالله القاتل.

والغريب أن هذه الأحداث، كثيراً ما تقع نظائرها في حياتنا، ونجد الناس إزاءها في حيرة، لا يدرون ماذا يفعلون، وغاية ما نسمعه من الناس القول بأنها فتنة، ويغيب عن خلدهم أنها إن كانت فتنة فلها موقف، وإن لم تكن فتنة فلها موقف أيضاً، وتفصيل ذلك وبيانه في حديث رسول اللهﷺ ضمن أخبار المستقبل.

إن مثل أحدنا- اليوم- في معترك الحياة وخضم أحداثها الجسام، مثل رجل يسير في طريق مظلم، متعثر الخطوات كالأعمى تماماً، وليس بينه وبين مصباح يضيء له الطريق إلا أن يدس يده في جيبه فيخرجه، ولكن لا يفعل ذلك، غفلة أو جهلاً منه، بأن هذا المصباح صمم لهذا الغرض.

ولنعرض أنموذجاً فعلياً من الحديث النبوي الشريف بهذا الصدد، نتبين من خلاله، ما وراء هذا اللون من الأحاديث، من غايات وأسباب، وفوائد وفرائد، ونترك التعليق عليه لمن يقرأه مستحضراً ما ذكرناه من معان:

عن عبدالله بن عمرو بن العاص‎ قال: "كنا مع رسول اللهﷺ في سفر، فنزلنا منزلاً فمنا من يصلح خباءه ومنا من ينتضل، ومنا من هو جشرة إذ نادى منادي رسول اللهﷺ الصلاة جامعة، فاجتمعنا إلى رسول اللهﷺ

فقال: إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شر ما يعلمه لهم وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها وتجيء فتنة فيرقق بعضها بعضاً وتجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه مهلكتي ثم تنكشف وتجيء الفتنة، فيقول المؤمن هذه فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه ومن بايع فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعمه إن استطاع فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر (14).

وسنفصل البيان في ذلك من خلال الحديث عن محاور الاستشراف في الحديث النبوي.

محاور المستقبل في الحديث النبوي الشريف:

بقليل من التأمل في الأحاديث النبوية، الواردة بشأن المستقبل واستشرافه، يبدو لنا أن محاور الاستشراف عديدة، ومتنوعة، فضلاً عن كونها لم تقتصر على أحداث الدنيا، بل تجاوزت ذلك إلى ما بعده من عالم البرزخ، فيوم البعث والنشور، فيوم الحساب، فالمصير النهائي للبشر، الجنة أو النار.

ويعنينا من الإخبار النبوي للمستقبل ما يتعلق بأحداث الحياة الدنيا وأحوالها لأن الغرض من هذا العلم توظيف الأخبار المستقبلية لخدمة الأمة في حياتها الدنيا، ولا يمتد الانتفاع منه إلى ما وراء ذلك.

وإذا أنعمنا النظر فيما بين أيدينا من أحاديث نبوية تملكتنا الدهشة من كثرة ما فيها من أخبار مستقبلية، يتعذر معها الحصر والاستيعاب.

وهذا البحث لم يسق أصلاً لهذا الغرض، لذا سنسلك سبيل الاختصار، ونجمل أولاً ذكر المحاور التي وردت فيها أحاديث المستقبل، ثم نعرف بطبيعة كل محور، ونضرب له أمثلة من الحديث النبوي الشريف تناسب المقام، مقرونة ببعض الإيضاحات والشروحات، ونترك الأفق مفتوحاً أمام الباحثين.

المحاور:

يمكن تقسيم هذه المحاور على سبعة أقسام، ست منها يعنينا في البحث، والسابع لا يعنينا بشيء...

الأول: أخبار المستقبل في شأن ارتفاع الأمة الإسلامية واستفاضة المال والخير فيها، واستتباب الأمن.

الثاني: أخبار المستقبل في انخفاض الأمة، وتردي أحوالها، والتداعي عليها، وكثرة الفتن فيها.

الثالث: أخبار المستقبل في شأن الفتوحات التي تكون على أيدي الأمة والحروب التي تخوضها مع أهل الكفر.

الرابع: أخبار المستقبل في اختلال المقاييس الدينية والخلقية والاجتماعية، وضياع الحقوق، وشيوع الجور والظلم.

السادس: أخبار المستقبل في اختلال بعض نواميس الكون والحياة، على سبيل النفع أو الضر.

السابع: أخبار المستقبل في أحداث الساعة نفسها.

وهذا الأخير لا يعنينا بشيء، لأن الثابت في السنة الصحيحة: "أن الساعة لا تقوم وعلى الأرض مؤمن بالله". فالفائدة من هذا القسم من حيث التخطيط والاستعداد منتفية في حق المؤمنين.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه المحاور قد تتداخل فيما بينها، فما أعددناه ضمن المحور الأول، قد يصدق عليه في الوقت ذاته أكثر من محور، وخذ-على سبيل المثال-نزول المسيح عليه السلام، فإنه يصدق عليه المحور باعتبار أن الأمة في عهده ستبلغ شأناً من الرفعة والاستقرار، ويصدق عليه المحور الثالث باعتباره يخوض حرباً ضد المسيح الدجال، ويصدق عليه المحور السادس باعتباره علامة من علامات الساعة الكبرى، وهكذا.

وإنما اخترنا التقسيم على النحو الذي بيناه لنمنح كل محور استقلالاً، كافياً للفت الأنظار إليه، وتوجيه العناية به، بما يضمن تمهيد الطريق للانتفاع منه في أمور الحياة، وهذا الغرض الأهم من أحاديث المستقبل.

المحور الأول: أخبار المستقبل في شأن ارتفاع الأمة الإسلامية واستفاضة المال والخير فيها واستتباب الأمن

تحدث النبي ﷺ بشأن ارتفاع الأمة الإسلامية، وعلو شأنها واستفاضة المال فيها، وكثرة الخير، واستتاب الأمن في جوانبها.

والنبي ﷺ يوم تحدث بهذا، كانت الدعوة الإسلامية في أولها، والمسلمون لا يزالون مستضعفين في مكة أو محاصرين في المدينة، تحوم حولهم العيون، وتنصب له الشواك، ويتربص بهم المشركون ريب المنون، ولم يكن ثمة في الأفق ما يدل على أن هذه الأمة ستنجو من أعدائها، وتتجاوز ما يحوكونه لها من مصير، بل كان ذلك أشبه بالحلم.

وهذه البشارات، بعضها تحقق زمن النبوة، وبعضها تحقق بعد ذلك، وبعضها ينتظر وقوعه في قابل الأيام.

ونذكر بهذا الصدد:

حديث الخباب بن الأرت رضي الله عنه وهو مشهور، يقول: "شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة قلنا له: ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا، قال: كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون" (15).

وحديث عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: يا عدي هل رأيت الحيرة، قلت: لم أرها وقد أنبئت عنها، قال: فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله، قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين ذعار

طيء الذين قد سعروا البلاد، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى، قلت: كسرى بن هرمز! قال: كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه وليلقين الله أحدكم يوماً يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له فيقولن: ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك: فيقول بلى، فيقول: ألم أعطك مالاً وولداً وأفضل عليك، فيقول: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم، قال عدي سمعت النبيﷺ يقول: اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة، قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي: أبو القاسمﷺ يخرج ملء كفه"[16].

وهذا الوعد الثالث الذي لم يشهده عدي بن حاتم، ذكره الرسولﷺ أكثر من مرة، وفي أكثر من حديث، ومن ذلك: حديث حارثة بن وهب﵁ قال: "سمعت رسول اللهﷺ يقول: تصدقوا فيوشك الرجل يمشي بصدقته، فيقول: الذي أعطيها لو جئتنا بها بالأمس قبلتها فأما الآن فلا حاجة لي بها فلا يجد من يقبلها" [17].

ومن ذلك أيضاً حديث أبي هريرة﵁ أن النبيﷺ قال: لا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهم رب المال من يقبل منه صدقة ويدعى إليه الرجل فيقول لا أرب لي فيه"[18].

وأكثر المؤرخين على أن ذلك وقع زمن الخليفة الزاهد عمر بن عبدالعزيز – رحمه الله – فقد استفاض المال في خلافته وزاد الخير، فكان الرجل يعطى الدنانير الكثيرة فيسخطها ويعرض عنها، وكان صاحب المال يعرض صدقته فلا يجد من يقبلها فيضل مبهوتاً، لا يدري أين يضع صدقته.

وبعض المؤرخين يذهبون إلى أن ذلك لم يقع بعد، وأنه ضمن المنتظر من علامات الساعة[19].

ويبدو لي أنه وقع وأنه سيقع، وأحاديث النبيﷺ بهذا الصدد، ليست سرداً لواقع، بل هي إشارة نبوية واضحة، وإلى أن هذا الخير ينال الأمة، كلما حكمت بما أنزل الله، وتمسكت بالأمر والمعروف والنهي عن المنكر، فهو لون من الوعد النبوي المستمر والقابل للتكرار كلما توافرت شروطه، لتكون هذه الحالة الفياضة بالخير طموحاً لدى الأمة، تسعى إليه بأسبابه التي سنها الله﷯ .

وعلى كل حال، فإن هذا الإخبار النبوي، ضمن هذا المحور، والتبشير بما سيعم الأمة من الارتفاع والخير، كان له تأثير في نفوس المسلمين، فقد كان يمنحهم الطمأنينة، ويبعث فيهم الأمل في النصر والتفوق دائماً، على نحو يرفع من معنوياتهم، فإن المجاهد حين يدخل المعركة يثق ابتداء أن النصر فيها حليفه، يكون أكثر اندفاعاً، وأشد حماسة، فضلاً عن أن وقوع تلك المغيبات وفق السياق الذي أخبر به النبيﷺ يثبت الإيمان ويقويه ويعمق ثقة المؤمنين ببقية الوعود النبوية في إخبارها المستقبلية.

المحور الثاني: أخبار المستقبل في انخفاض الأمة وتردي أحوالها والتداعي عليها، وكثرة الفتن فيها.

مثلما تحدث النبيﷺ عن ظروف تتصدر فيها أمة الإسلام ركب الحياة ويعلو شأنها، تحدث كذلك عن ظروف أخرى تنتكس فيها هذه الأمة، وتتردى أحوالها، وتكثر الفتن فيها، فقد أخبر النبيﷺ عن حال تجتمع فيها أمم الكفر على أمة الإسلام، تستبيح أرضها، وتنهب خيراتها، وتتقاسم مغانمها.

ففي الحديث عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ: "يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ، قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن، فقال قائل يا رسول الله: وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت"[20].

وبقليل من النظر والتأمل في هذا الحديث يبدو للمتأمل ما فيه من دقة متناهية في الرصد والوصف، فليس ثمة واقع يصدق عليه هذا الحديث النبوي الشريف مثل واقع الأمة الإسلامية عبر تأريخها الطويل.

فقديماً تداعت على العالم الإسلامي أمم الشرق والغرب، وبيتت له الشر، وتربصت به الدوائر، وانطلقت في أرجاء العالم الإسلامي انطلاق الأسود الضارية، التي يدفعها الشرب والجوع، فقضت على دولة الإسلام في الأندلس، وتم لها الاستيلاء على بلاد التركمانستان ذات الشهرة الإسلامية العظيمة، وعلى القوقاز وشمالي إيران.

وكان الغزو المغولي التتاري والحروب الصليبية التي لا يخفى خبرها.

ثم كان القضاء على الخلافة الإسلامية في تركيا، وهيمنة إنكلترا على الهند، واحتلالها لمصر والعراق وفلسطين وعدن، واستئثارها بالحكم في السودان، وسيطرتها على أراضي الخليج والجنوب العربي.

وكان احتلال فرنسا للجزائر وتونس ومراكش وسوريا ولبنان، وإيطاليا لليبيا ومراكش والصومال، وسيطرة هولندا على إندونيسيا.

وفي العصر الحديث مكن اليهود من إقامة دولتهم في فلسطين، وغزت روسيا أفغانستان، وكانت الحرب الحامية بين دولتين مسلمتين العراق وإيران[21].

ثم جاءت حرب الخليج الثانية التي كانت طامة كبرى ألحقت بالعالم الإسلامي أذى كبيراً. وفي كل الأحوال كان المغنم للعدو، والمغرم من نصيب المسلمين جميعاً.

فما أصدق هذا البحث.

ومع ذلك يخطئ من يظن أن حديث النبيﷺ يخبر عن قدر سيقع لكن ينبه ويبين كيف نتجاوزه ويبين لماذا يقع حتى لا نضل. فإن النبيﷺ ذكر علة تمكن الأعداء من الأمة، بقوله: "حب الدنيا وكراهية الموت"، وفي هذا

إشارة-على ما أرى-أن الأمة يوم تكره الدنيا وتحب الموت في سبيل دينها والحفاظ على كرامتها، فإن أعداءها لن يقربوها، وإن فعلوا فلن ينالوا منها شيئاً.

وفي تقديري أن هذا ما أراده النبيﷺإيصاله لنا، من خلال هذا الحديث، وليس الغرض الإخبار المحصن بالقدر الحتمي المفضي إلى الاستسلام واليأس، بدليل أن الحديث نفسه تضمن الوسيلة التي تكفل الحيلولة دون وقوع هذا التداعي، وهو: كره الدنيا وحب الموت.. وكان الجدير بالأمة بدل أن تنتظر لتستسلم لقدر – كما فعلت في هذا العصر – أن تعمل كما علمها رسول اللهﷺ للحيلولة دون وقوعه.

وهكذا يجب أن نفهم أخبار المستقبل في حديث النبيﷺ.

وكذلك حدثنا النبيﷺ عن كثرة الفتن التي ستصيب الأمة الإسلامية وتشل حركتها، وتحول بينها وبين التقدم إلى أمام، كفتنة القتال بين المسلمين والخروج على الجماعة، وغير ذلك.

ولخطورة موضوع الفتن، ولأن الحق فيها غالباً ما يختلط مع الباطل، فإن النبيﷺ – في أكثر الأحيان – كان يقرن ذكر الفتنة ببيان المخرج منها.

فعن أبي بكرةﷺ قال: "قال رسول اللهﷺ: إنها ستكون فتن ألا ثم تكون فتنة القاعد فيها خير من الماشي فيها والماشي فيها خير من الساعي إليها فإذا نزلت أو وقعت فمن كان له إبل فليلحق بإبله ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه، قال: فقال رجل يا رسول الله: أرأيت من لم يكن له إبل ولا غنم ولا أرض قال يعمد إلى سيفه فيدق على حده بحجر ثم لينج إن استطاع النجاء اللهم هل بلغت اللهم هل بلغت هل بلغت، قال: فقال رجل يا رسول الله: أرأيت إن أكرهت حتى ينطلق بي إلى أحد الصفين أو إحدى الفئتين فضربني رجل بسيفه، أو يجيء سهم فيقتلني، قال: يبوء بإثمه وإثمك ويكون من أصحاب النار"[22].

وكما يلاحظ فإن هذا الحديث النبوي ذكرا لفتنة مقترنة ببيان المخرج، فالحديث ينبه على ضرورة التأني في حال ما إذا وقعت فتنة القتال بين المسلمين، فالتسرع في الفتنة من أخطر دوافع القتال، وقد أعرب النبيﷺ عن عدم التسرع هذا بقوله: "القاعد فيها خير من الماشي..." فكلما تأنى المرء في الفتنة وابتعد عنها كان أهون شراً وأقل إثماً من المشتركين فيها المشعلين لنارها.

وإذا وقعت الفتنة فحينئذٍ تكون البداوة خير مهرب فمن كانت له إبل أو أرض أو غنم فالاشتغال بها خير من البقاء مع الجماعات المصارعة، لأنه-والحالة هذه-سيجد نفسه مستدرجاً للإنحاز إليها، وليس في ذلك مصلحة إلا للعدو والمشترك الذي عادة ما يستغل تلك الصراعات، ويجعلها تصب في صالحه.

فإن لم يتمكن المؤمن من الهرب، وأجبر على الدخول في القتال، فقتل فهو شهيد، والذي قتله يكون من أصحاب النار إذا كان حريصاً على القتل مستحلاً لدم المسلم.

ولا يخفى أن في الحديث دلالة مهمة وهي: أن القاتل إذا كان هو الآخر غير مستحل لدم أخيه، ولا قاصداً القتال، بل همه الدفاع عن نفسه، فليس هو من أصحاب النار أيضاً[23].

والحق أن هذه التوجيهات النبوية، من الأهمية بمكان، ولطالما قامت حروب بين المسلمين، هي في نظر الدين فتنة، ويحار الناس كيف يفعلون معها، ولو عادوا إلى أحاديث النبيﷺ لوجدوا لها ذكراً ومنها نجاءاً، وكل ما ذكر عليهم فعله هو تطبيق النص على الواقع.

وعن عرفجةﷺ قال: "سمعت رسول اللهﷺ يقول: "إنه ستكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان[24].

إن هذا الحديث يدلل على أن أمر الجماعة خطير وشأنه كبير بحيث إذا وجدت وتكاملت شروطها وأركانها وكانت لها شوكة تقارع بها الكفار، وتحمي المؤمنين من شرهم، ثم خرج شخص مسلم-وإن كان تقياً-يريد أن يفرق هذه الجماعة، و لم يمكن السيطرة عليه إلا بالقتل، فإن قتله والحالة هذه أمر واجب، لأنه أهون شراً من تفريق الجماعة، لما في الجماعة من حصانة ضد الكفار وشرورهم، وهو أمر من دونه تحصل الكارثة بضياع الدين وإذلال المؤمنين.

وقال النبيﷺ أنه: "ستكون هنات وهنات "إخبار بأن ذلك سيقع، وكان حرياً بالمسلمين أن يستعدوا له ويلتزموا الإرشاد النبوي بصدده، والمستقرئ لتأريخنا الإسلامي يجد عدداً كبيراً من الوقائع والأحداث التي جرت فيها أمثال هذه الفتن وأن المسلمين إزاءها حينما يلتزمون بالإرشاد النبوي كانوا ينجون من شرور كثيرة، ويوم يتخلون عن هذا الإرشاد كانوا يتعرضون لمخاطر وآفات ضيعت عليهم كثيراً من خير الدين والدنيا.

وهناك فتن كثيرة ذكرها النبيﷺ، ورسم سبلاً للتعامل معها كفتنة المال والنساء، لا يتسع البحث لها، وليس ذلك من أغراضه، لذا نكتفي بهذا القدر فيما يتعلق بالمحور الثاني.

المحور الثالث: أخبار المستقبل في شأن الفتوحات التي تكون على أيدي الأمة والحروب التي تخوضها مع أهل الكفر

تحدث النبيﷺ بشأن الفتوحات التي سيجريها الله على أيدي هذه الأمة والحروب التي ستخوضها، وكان ينبه على أن هذه الفتوحات ستكون لدول عظمى، لم يكن المسلمون وقتئذٍ يشكلون أمامها أي خطر.

ولو كان المتحدث غير النبيﷺ لأحجم الناس عن خبره، و لم يعيروا لقوله اهتماماً، فإن ذلك يشبه اليوم من يأتي إلى دولة فقيرة كالصومال مثلاً يحدثها أنها ستفتح قريباً الولايات المتحدة الأمريكية ولكن المحدث هنا رسول اللهﷺ الموحى إليه بخبر السماء، فكان الأمر كما حدث.

فلقد أخبر النبيﷺ بفتح فارس والروم، وأن المسلمين سيمكنون من كنوز هاتين الدولتين، وسينفقونها في سبيل الله:

فعن نافع بن عتبة رضي الله عنه أنه سمع رسول اللهﷺ قال: تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله، ثم فارس فيفتحها الله، ثم تغزون الروم فيفتحها الله، ثم تغزون الدجال فيفتحه الله(25).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ: "إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذي نفس محمد بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله(26).

وبشر النبيﷺ بفتح القسطنطينية العاصمة الشرقية للدولة الرومانية كما بشّر بفتح روما.

ففي الحديث عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه وقد سئل أي المدينتين تفتح أولاً القسطنطينية أو الرومية فدعا عبدالله بصندوق له حلق فأخرج منه كتاباً، فقال: "بينما نحن حول رسول اللهﷺ فسئل أي المدينتين تفتح أولاً يعني القسطنطينية أو الرومية، فقال: مدينة هرقل أولاً يعني القسطنطينية"(27).

وقد تحققت البشارة على يد محمد الفاتح إبّان الخلافة العثمانية ومازلنا بانتظار تحقق البشارة الثانية.

وقد أخبر النبيﷺ بأننا سنقاتل الترك وهم التتار، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ: "لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك صغار الأعين، حمر الوجوه ذلف الأنوف كأن وجوههم المجان المطرقة ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر(28).

وقد حدث هذا القتال في القرن السابع الهجري عندما اجتاح المغول والتتار البلاد الإسلامية، وعاثوا فيها فساداً وقد كانوا بتلك الصفات.

قال النووي: - رحمه الله- وهو عاش في الفترة التي ظهروا فيها (وقد وجدوا قتال هؤلاء بجميع صفاتهم التي ذكرها النبيﷺ في زماننا وقاتلهم المسلمون مرات) (29).

وهذا الأخبار وأمثالها غنية بالفوائد، وكان المنتظر من أمة الإسلام وقد أخبرها النبيﷺ بلقاء محتوم مع عدوها أن تستعد للقائه ولو قبل أجيال، وتعمل بجد للتعرف إلى هذا العدو، وتقف على مواطن القوة والضعف فيه، وتلقن ما تتوصل إليه بهذا الصدد أبنائها، حتى إذا داهمهم العدو المذكور كانوا على أهبة الاستعداد للقائه وصد شره وأذاه.

المحور الرابع: أخبار المستقبل في اختلال المقاييس الدينية والخلقية والاجتماعية وضياع الحقوق وشيوع الجور والظلم

كان حديث النبيﷺ في هذا الصدد ذا شجون، فإن المقاييس المعتبرة حين تختل في أمة من الأمم فذلك إيذان بزوال بريقها وتمكن عدوها منها.

واختلال الموازين الذي استشفه رسول اللهﷺ لنا شمل كثيراً من مظاهر الحياة الخطيرة كالحكم وضياع الأخلاق والفساد الإداري والظلم وأكل الأمانات وهكذا ....

ولخطورة هذا الجانب في حياة الأمة فإن النبيﷺ كان كثيراً ما يقرن هذه الأخبار بسبل التعامل إزاءها للنجاة من تداعياتها، كما كان يفعل في أخبار الفتن.

ومن ذلك ما روي عن بن مسعودﷺ أن النبيﷺ قال: "سيكون عليكم أمراء بعدي رجال يطفئون السنة، يؤخرون الصلاة عن مواقيتها ويحدثون البدع، قال ابن مسعود: فكيف أفعل، قال: تسألني يا ابن أم عبد كيف أفعل، لا طاعة لمن عصى الله"[30].

ومن نظر إلى حالة الأمة الإسلامية اليوم لم يخالجه الشك في أن ما حدث به رسول اللهﷺ قد وقع، فمن حكام المسلمين من تشغله الدنيا والشهوات عن الاهتمام برعيته، ومنهم من ينشر بينهم المنكرات عن سابق إصرار، ومنهم من يتأخر عن أداء الفرائض وهكذا.

والنبيﷺ في هذا الحديث ينهى عن طاعة هؤلاء في معصية الله سبحانه وتعالى، ومن ذلك حديث عبدالله بن عمرو بن العاصﷺ قال: "بينما نحو حول رسول اللهﷺ إذ ذكر الفتنة-أو ذكرت الفتنة-فقال: إذا رأيتم الناس قد مرجت عهودهم، وخفت أماناتهم وكانوا هكذا وشبك بين أصابعه، قال: فقلت كيف أفعل عند ذلك جعلني الله فداك، قال: الزم بيتك واملك عليك لسانك وخذ بما تعرف ودع ما تنكر وعليك بأمر خاصة نفسك ودع عنك أمر العامة"[31].

ومن ذلك حديث أبي هريرةﷺ قال: "قال رسول اللهﷺ: سيأتي على الناس سنوات خداعات يصدق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق ويؤتمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين وينطق فيها الرويبضة قيل وما الرويبضة قال الرجل التافه في أمر العامة"[32].

ومن تأمل أحوال الأمة الإسلامية يجد أنها تعيش العصر الذي أخبر عنه رسول اللهﷺ فالكذبة من أهل الكفر والشرك الذين يملكون معظم وسائل الإعلان ومن على شاكلتهم يصدقون، والصادقون من هذه الأمة والعاملون بصدق على مصلحتهم يكذبون، والدول الإسلامية تضع أموالها في بنوك دول الكفر وتأتمنهم عليها

في حين يخون المسلمون ولا يؤتمنون على شيء من ذلك، وقد تكلم في شؤون العالم التافهون من الرجال وقادوه قيادة هوجاء توشك أن تدمر البشرية كلها[33].

ومثلما يحدث هذا على مستوى الدول فإن نظيره يحدث على مستوى الأفراد والجماعات داخل المجتمع الواحد.

المحور الخامس: أخبار المستقبل في اختلال بعض نواميس الكون وتغير أشياء في طبيعة الحياة نفعاً أو ضراً

مثلما استشف النبيﷺ المستقبل في اختلال المقاييس الدينية والخلقية والاجتماعية، بين لنا أن الاختلال سيطال بعضاً من نواميس الكون، بحيث يحدث تغيراً في الطبيعة المألوفة عند الناس سواء كان هذا التغير نافعاً أو ضاراً.

ومن ذلك: عودة الجزيرة العربية جنات وأنهار، ففي الحديث عن أبي هريرةﷺ قال: قال رسول اللهﷺ: "لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض حتى يخرج الرجل زكاة ماله فلا يجد أحداً يقبلها وحتى تعود أرض العرب جنات وأنهاراً" [34].

وهذا الحديث ينبئ عن تحول كبير في طبيعة المنطقة، وينبغي على أهل العلم الجيولوجيين وغيرهم الإفادة من هذا الخبر والتأمل فيه، والنظر في أسباب هذا التحول، وهل سيكون تحولاً طبيعياً في جيولوجيا الأرض ومناخها، أم سيكون ذلك بفعل الإنسان مثلاً وهل أن هذه الظاهرة قريبة بحيث يمكن التهيء لاستثمارها بما يعود على الأمة بالنفع في شتى المجالات الزراعية والتجارية والسياحية وغير ذلك، أم أنها بعيدة منوطة بجملة من التغيرات في الطبيعة لا تبدو قريبة في الأفق.

ومن ذلك: تكليم السباع والجماد والإنس، فقد روي عن أبي سعيد الخدريﷺ في حديث طويل عن النبيﷺ، جاء في آخره: "والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الإنس ويكلم الرجل عذبة صوته وشراك نعله ويخبره فخذه بما حدث أهله بعده"[35].

هذا الحديث كذلك يحتاج إلى دراسة مستفيضة، ففيه فوائد كثيرة، منها أن للسباع لغة وللجماد لغة سيتمكن الإنسان من معرفتها، وربما أمكنه الآن لو فعل أن يقف على كثير من أسرارها، فالحديث إذن لا يقتصر على الإخبار بما سيحدث، بل يتضمن كذلك تنبيه الإنسان على ما في المخلوقات من أسرار يمكن استغلالها لصالحه.

المحور السادس: أخبار المستقبل في علامات الساعة الصغرى والكبرى

شمل النبيﷺ بيانه للمستقبل لعلامات الساعة بشقيها الصغرى والكبرى وكان بياناً وافياً وشاملاً ودقيقاً.

أما الصغرى فقد وقع معظمها، و لم ينتفع المسلمون من أخبار النبيﷺ عنها إلا ما ينجم عن دهشتهم بوقوعها مطابقة لما حدث به وقولهم إثر ذلك سبحان الله تصديقاً للنبيﷺ وإعجاباً بمطابقة الواقع لكلامه الشريف قبل مئات السنين.

وأما الكبرى فلم تقع بعد، وما زال بمقدور المسلمين الانتفاع من الأخبار النبوية التي جاءت بصددها.

وفي كل الأحوال فإن هذا البيان النبوي من الأهمية بمكان، ويخطئ من يظن أن البحث فيه ليس بنافع، بدعوى أن ذلك من شأن آخر الزمان، لأن النبيﷺ حين أنبأنا بعلامات الساعة لم يكن قصده – مثلما بينا من قبل – سرد أحداث معينة ستقع حتماً لينتفع من بيانه من ستواجهه هذه الأحداث ويعايشها فحسب، بل أراد كذلك-وهو الأهم في نظري – أن ينتفع منها غير المواجهين، – وهم المقصودون لأنهم الأكثر – في تعاملهم مع أحداث أخرى هي نظائر لتلك التي أخبر عنها.

فالبيان في حقيقته منهاج كامل رسمه رسول اللهﷺ للمسلمين جميعاً يتعلمون من خلاله دروساً في التعامل مع الأحداث الساخنة والأمور الخارقة والفتن العارمة على اختلاف أنواعها وأحجامها.

وهذا ما يجب أن نفهمه من أحاديث علامات الساعة، إذ لا يتصور في تقديري أن يقول النبيﷺ أحاديث تبلغ مئات ومئات وتتناقلها الأجيال عبر مئات السنين ويكون نفعها بالتالي حصراً على طائفة معينة من الناس ولفترة يسيره من الزمن.

فحين ننظر في أحاديث الدجال-وهو من علامات الساعة الكبرى-فالغرض من ذلك أن نتعلم كيف نتعامل مع فتن أخرى مشابهة، يقودها دجالون آخرون، وليس بالضرورة أن نعاصر الدجال نفسه لنتخذ إزاءه الوسائل الرادعة لفتنته التي علمنا إياها رسول اللهﷺ.

إن كل داعٍ لضلالة دجال، وكل ساعٍ لهدم الدين دجال، وكل صاحب فتنة دجال، وهلم جراً.

وأن أحاديث النبيﷺ في الدجال-فضلاً عن كونها استشفافاً للمستقبل-منهج كامل للمسلم يتعلم من خلاله طرق التعامل مع أصحاب الفتن، والسبل للنجاة من إضلالهم ومخادعاتهم ودجلهم.

وهذا ما يهدف إليه الإرشاد النبوي، وليس من المعقول أن يقتصر نفع هذا الكم الهائل من الأحاديث النبوية الذي ورد في فتنة الدجال وبلغ المئات، على عدد معين من الناس في آخر الزمان لا تمكث الفتنة بين أظهرهم أكثر من خمسة عشر شهراً في أبعد الآماد.

ومن أجل تأكيد ما نقول نضرب هذا المثال:

ذكر النبيﷺ جملة من علامات ظهور المسيح الدجال، منها: ضعف الدين والجهل به، كما روي عن جابر بن عبداللهﷺ أنه قال: قال رسول اللهﷺ: يخرج الدجال في خفقة من الدين وإدبار من العلم"[36].

ومنها: اختلاف الناس وفرقة المسلمين كما ورد عن أبي هريرةﷺ قال: سمعت أبا القاسم الصادق المصدوق يقول: "يخرج أعور الدجال مسيح الضلالة قبل المشرق في زمن اختلاف الناس وفرقة" [37].

ومنها: مجاعة شديدة تصيب الناس ففي حديث طويل عن النبيﷺ رواه أبو أمامة الباهليﷺ جاء فيه: "وأن قبل خروج الدجال ثلاث سنوات شداد يصيب الناس فيها جوع شديد" [38].

أقول: المتأمل في هذه العلامات والتي ساقها النبيﷺ علامات لظهور الدجال يبدو له أن أمرها أوسع من هذا النطاق فإنها -فضلاً عن كونها علامات لظهور المسيح الدجال- بيان نبوي لعلامات ظهور الدجال بشكل عام في كل زمان ومكان، ولا تقتصر على دجال آخر الزمان، فحيث ما وجدت في أرض نبت الدجل فيها، بعبارة أخرى هي الظروف التي تعمل على أن يظهر في الأمة دجال، فضعف الدين والجهل وفرقة المسلمين والجوع هي المناخ المناسب لظهور الدجل والدجاجلة، ومتى وجدت مجتمعة في أمة فلنعلم أن ثمة دجالاً سيظهر وسيتمكن عاجلاً أو آجلاً.

إن الفتن تنشأ عادة في مثل هذه البيئات وتربو فيها، ولن تجد أنسب مناخاً من أرض لم يغرس فيها إيمان، و لم ينبت فيها علم، و لم تجمع بين أهلها آصرة قوية.

إن أصحاب الأفكار الضالة والمبادئ الهدامة، التي لا تملك رصيداً من العلم والأخلاق يجعلها تفشو بين الناس وتستهوي أفئدتهم، يبحثون عن هذا المناخ لأنهم يعلمون أن غيره لا يصلح لهم، وأنهم من دونه لن يحققوا أهدافهم، وأن جهودهم مهماً عظمت فمآلها إلى البوار وهكذا يجب أن نفهم أخبار النبيﷺ للمستقبل في علامات الساعة وغيرها.

إن علينا التيقن بأن هذا الإخبار كنز، علينا فتح أقفاله والإفادة من ذخائره في مواجهة الحياة بحلوها ومرها ومتى فعلنا ذلك نكون قد أصبنا غاية رسول اللهﷺ من إخبارنا بالمستقبل لنا وأفدنا منه فائدة عظيمة.

خاتمة وتوصيات:

تمخض البحث عن جملة من النتائج والتوصيات تسجل أهمها فيما يأتي:

أولاً: أن أخبار المستقبل في السنة النبوية من الأهمية بمكان، وهي أشبه ما تكون بالكنز الذي ينتظر من يفتح غطاءه ويكتشف نفائسه، وتكمن الأهمية في هذه الأخبار، من حيث أن فائدتها تتعدى من سيعايش الأحداث المخبر عنها إلى المسلمين كافة من خلال تعلمهم سبل التعامل مع نظائر هذه الأحداث، وهي لا تقتصر على جيل من الأجيال أو زمان أو مكان.

ثانياً: يمكن القول إن أخبار المستقبل مدرسة نبوية عظيمة يفتقر المسلمون إلى الانخراط فيها والاطلاع على مناهجها ليتمكنوا من مجاوزة عقبات المستقبل بسلام والإفادة من فرصه وعطائه.

ثالثا: تختلف معطيات أخبار المستقبل في الحديث النبوي الشريف عن الجهود البشرية في استشراف المستقبل، لأن الأولى ليست افتراضات وتخرصات قابلة للنقص، بل هي آفاق للوحي السماوي الذي لا مجال للخطأ في تقريراته ولا ينافسه في الإحاطة بالمستقبل أحد، في حين يبقى الجهد البشري أسير الظنون والاحتمالات، وهذا ما ينبغي أن يكون سبباً لترجيح كفة المسلمين على غيرهم في مواجهة الأحداث.

رابعاً: ما يميز أخبار المستقبل في الحديث النبوي الشريف أنها في كثير من الأحيان لا تكتفي بالكشف عن الحدث المستقبلي، بل تقرن معه ما ينبغي أن يتخذ المسلمون إزاءه من خطوات وهذا خير عظيم، وفضل من الله ورسوله لم تحظ بمثله أمة أخرى.

خامساً: تعددت المحاور التي تضمنتها أخبار المستقبل في الحديث الشريف، فمنها أخبار اجتماعية، ومنها أخبار سياسية ومنها أخبار عسكرية وغير ذلك، وكلها مما تمس الحاجة إلى معرفته، والإفادة من نصوصه.

وللبحث توصيات أيضاً:

أولاً: ينبغي على الباحثين أن يولوا هذا الجانب اهتماماً خاصاً، فقد غدا هذا العلم وسيلة مهمة للحصول على مواقع أفضل في الحياة.

ثانياً: يأمل الباحث، أن تعنى مراكز البحوث والدراسات في الجامعات العربية، والإسلامية، لعقد ندوات ومؤتمرات بهذا الصدد، وعلى نحو مستمر.

ثالثاً: يذكر الباحث بضرورة الاقتصار على الأحاديث الصحيحة من أخبار المستقبل، واستبعاد الأحاديث الضعيفة فإنه إذا جاز لنا أن نروي هذه الأخبار على سبيل الترغيب، والترهيب لم يجز لنا أن نعتمدها في سبيل تكوين ملامح لأحداث مستقبلية يرتبط بها مصير أمة بكاملها.

الهوامش

1- انظر بهذا الصدد: أ. محمد حبش، حاجتنا إلى علوم المستقبل ص51، بحث في مجلة المسلم المعاصر: العدد61، سنة 1992م.

2- المصدر نفسه: ص51.

3- المصدر نفسه.

4- انظر: ابن منظور، لسان العرب 170/9، 171، الرازي، مختار الصحاح ص141.

5- انظر: لسان العرب: 171/9، وأنظر حديث طلحة بأصله في مسند الإمام أحمد: 230/1 برقم(13827).

6- انظر القاموس المحيط: 1098/2.

7- انظر المصدر نفسه: 1381/2.

8- مجموعة من الباحثين العرب: صور المستقبل العربي، ص23.

9- انظر: حاجتنا على علوم المستقبل ص80.

10- انظر: المصدر نفسه ص67.

11-رواه مسلم: ، برقم(2891) (باب إخبار النبيﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة).
وابن حبان: برقم(6636)، (باب إخبارهﷺ عما يكون في أمته من الفتن والحوادث)، وأبو داود: برقم(4240)، (أول كتاب الفتن والملاحم) باب (ذكر الفتن ودلائلها).

12- رواه أبو داود: برقم(4243)، (أول كتاب الفتن والملاحم) باب (ذكر الفتن ودلائلها).

13- رواه مسلم برقم(2892)، (باب إخبار النبيﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة).

14- رواه مسلم: برقم(1844)، (باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول).

15- رواه البخاري: برقم(6544)، (باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر)، وابن حبان: برقم(6698)، (ذكر الإخبار عن أمن الناس ثم ظهور الإسلام في جزيرة العرب).

16- رواه البخاري: برقم(3400)، (باب علامات النبوة في الإسلام).

17- رواه مسلم: برقم(1011)، (باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها).

18- رواه مسلم: برقم(157)، (باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها)، وابن حبان: برقم(6680)، (ذكر الأخبار عن عرض الناس صدقة الأموال على الناس في آخر الزمان وعدم من يقبلها منهم).

19- انظر: د. عمر سليمان الأشقر، اليوم الآخر، القيامة الصغرى ص191.

20- رواه أبو داود: برقم(4297)، (باب في تداعي الأمم على الإسلام).

21- انظر محمد محمد الدهان: قوى الشر المتحالفة، الاستشراق - التبشير-الاستعمار، وموقفها من الإسلام والمسلمين ص170-171.

22- رواه مسلم: برقم(2887)، (باب نزول الفتن كمواقع القطر).

23- انظر: سعدون إبراهيم، أحاديث الفتن والمخرج منها، رسالة دكتوراه مكتوبة بالآلة الطابعة، نوقشت في كلية الشريعة، جامعة بغداد، 1997م: ص126.

24- : روه مسلم: برقم(1852)، (باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع)، وابن حبان: برقم(4406)، (ذكر الأمر بالقتل لمن أراد أن يفرق أمر أمة محمدﷺ بفراقه الجماعة وهم جميع)، أبو داود: برقم(4762)، (باب في قتل الخوارج).

25- : رواه مسلم: برقم(2900)، (باب ما يكون من فتوحات المسلمين قبل الدجال)، وابن حبان: برقم(6672)، (ذكر البيان بأن أول فتح يكون للمسلمين بعده فتح جزيرة العرب).

26- : رواه البخاري: برقم(3422)، (باب قول النبيﷺ أحلت لكم الغنائم ... الخ)، والترمذي: برقم(2216)، (باب ما جاء إذا ذهب كسرى فلا كسرى بعده).

27- : رواه الحاكم: 598/4، برقم(8662).

28- : رواه البخاري: برقم(2770) (باب قتال الترك).

29- : شرح النووي على مسلم: 37/18.

30- رواه ابن ماجه: 956/2، برقم(2865)، (باب لا طاعة في معصية الله).

31- رواه أبو داود: برقم(4343) (باب الأمر والنهي)، والنسائي: برقم(10033) (ما يقول لمن ينشد ضالة في المسجد).

32- : رواه ابن ماجه: برقم(4035)، (باب شدة الزمان).

33- : انظر: اليوم الآخر، القيامة الصغرى ص193.

34- : رواه مسلم: برقم(157)، (باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها).

35- رواه الترمذي: برقم(2181)، (باب ما جاء في كلام السباع)، المقدسي، والأحاديث المختارة: 305/6.

36- : رواه الإمام أحمد: 367/3، في مسند جابر بن عبدالله، برقم(14997). - من يقبلها).

37- : رواه ابن حبان: 223/15، في (باب ذكر قدر مكث الدجال في الأرض ثم خروجه من وثاقه) برقم(86812).

38- : رواه ابن ماجه: برقم(4077)، (باب فتنة الدجال وخروج عيسى بن مريم وخروج يأجوج ومأجوج).

المراجع

1- أحاديث الفتن والمخرج منها، سعدون إبراهيم جاموس، رسالة دكتوراة، مكتوبة على الآلة الطابعة، نوقشت في كلية الشريعة، جامعة بغداد، 1997م.

2- الأحاديث المختارة: أبو عبدالله محمد بن عبدالواحد بن أحمد الحنبلي، مقدسي، مكتبة النهضة الحديثة - مكة المكرمة، 1410، الطبعة الأولى، تحقيق: عبدالملك بن عبد الله بن دهش.

3- الجامع الصحيح، (سنن الترمذي): محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون.

4- الجامع الصحيح المختصر: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري، دار ابن كثير اليمامة-بيروت 1407-1987، الطبعة الثالثة، تحقيق د. مصطفى ديب البغا.

5- حاجتنا إلى علوم المستقبل: الأستاذ محمد بريش، مجلة المسلم المعاصر، العدد 61، السنة السادسة عشرة، 1992م.

6- سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، دار الفكر، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد.

7- سنن البيهقي الكبرى: أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، مكتبة دار الباز-مكة المكرمة 1414-1994، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا.

8- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي، مؤسسة الرسالة-بيروت 1414-1993، الطبعة الثانية تحقيق شعيب الأرنؤوط.

9- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، دار إحياء التراث العربي-بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي.

10- صحيح مسلم بشرح النووي: أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، دار إحياء التراث العربي-بيروت، 1392، الطبعة الثانية.

11- صور المستقبل العربي: د. إبراهيم سعد الدين، الدكتور علي نصار، الدكتور إسماعيل صبري، والدكتور عبد الفضيل، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1982م.

12- القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2000م، الطبعة الثانية.

13- قوى الشر المتحالفة، الاستشراق-التبشير-الاستعمار-وموقفها من الإسلام والمسلمين: محمد محمد الدهان، دار الوفاء، المنصورة، مصر 1988م.

14- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.

15- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: على بن أبي بكر الهيثمي، دار الريان للتراث ودار الكتاب العربي، القاهرة وبيروت 1407.

16- مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1415 هـ-1995م، تحقيق محمود خاطر.

17- مسند الإمام أحمد بن حنبل: أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، مؤسسة قرطبة-مصر.

18- المسيح المنتظر ونهاية العالم: عبدالوهاب عبدالسلام طويلة، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، 1999م.

19- اليوم الآخر، القيامة الصغرى، الدكتور عمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح، الكويت 1986م.